الترجمة للأطفال : بين ثقافة الأنا وثقافة الآخر

الأستاذ الدكتور عيسى بريهمات – جامعة الأغواط – الجزائر

مقدمة

ما تزال الترجمة الموجهة إلى أطفالنا تفتقر إلى الاختصاص ،فتنجز على هامش الأدب والتربية ،لا تخضع لطبيعة الطفل ،بل تخاطبه كأنه راشد ودونما اهتمام بخلفيته اللغوية والثقافية التي تفرض قيودها على التواصل. ويبدو سياق الترجمة غالبا مباينا بل مجافيا للسياق التربوي الذي يتميز بمعطيات نفسية واجتماعية خاصة. هذا المنحي الترجمي يتأسس في واقع الأمر على المعايير والاعتبارات التربوية كالنمو العصبي والنفسي وطبيعة لغة الأطفال وخيالهم وسلوكهم وإدراكهم المميز.أما نسقيا فتختلف ترجمة قصة الأطفال عن القصة الموجهة إلى الكبار،وتتجلى مظاهر الاختلاف في المستويات التركيبية والصرفية والمعجمية ،وعلى مستويات قابليات التأثيروالتأثر. وهي مظاهر تنعكس بشكل أو بأخر على الشروط التقنية وخصائص الجنس الأدبي وطبيعة الوسيط الثقافي أو طبيعة الاتصال الإعلامي.

الترجمة الأدبية– التربوية الموجهة إلى الطفل ، تعد من الأنشطة التي تصل بين أدبين فأكثر ،وتؤسس جسرا بين ثقافتين ولغتين مختلفتين. وتساهم في توصيل بعض روائع الأدب الإنساني – العالمي إلى قطاع من القراء الصغار ما كانت لتصل إليهم بدونها.الترجمة إدراك وتمثل فكر وافد،لا تقتصر على اللغة وحدها ولا تختصر في مجرد استبدال دوال وطنية بدوال أجنبية.إنها حالة من التفاعل الثقافي يتمثل في نقل النص الأصلي إلى فضاء ثقافة التلقي . و بهذا الوضع الترجمة

للأطفال واليافعين نشاط أدبي- تربوي وفكري مهم وعنصر من عناصر التقاء الثقافات وتفاعلها جدير بالاهتمام والدراسة.

يقوم المترجم ،في عملية الترجمة، بمد الجسور الثقافية التواصلية، فهو يمكن أن يقرب الثقافات كما يمكن أن يعمق الهوة بينها ويميل إلى ثقافة على حساب الأخرى. وفي مقدوره أن يسبغ مدلولا محليا على النص الأجنبي كما في استطاعته أن يدمغ النص المحلي بمدلول أجنبي.غير أنه لا يستطيع أن يخلص لغته من تباينات (*الأنا والآخر*) دون عقبات ويستطيع ذلك بمهارة التفاوض التي يعقدها بين اللغتين والثقافتين.هذه المكابدة التي يعانيها المترجم لا تذهب هدر وجُفاء بل تُحَوِل النص المترجم ،في واقع الأمر، إلى " رأس مال ثقافي" حيوي يعزز ويوسع القاسم المشترك من العلاقات بين أطفال العالم بل بين الشعوب والثقافات.

الترجمة تدمج ثقافة(الأنا والآخر) في دائرة القيم الإنسانية والعالمية فلا أحد يستطيع اليوم أن يستغني عن خدماتها المختلفة اللسانية والثقافية... ورب أمة لا تُعرف عند الآخر بكيانها المادي بل تُعرف من خلال رأسمالها الثقافي . فالغرب تَعرف علينا مثلا من خلال ثقافة ألف ليلة وليله وظل أطفاله وكباره يعتكفون على قراءتها طوال أربعة قرون من خلال ترجمتها إلى لغاتهم الأوروبية حتى تحولت إلى أصل جديد مفارق لأصلها العربي . أخصبت أدب الطفل الأوروبي والعالمي تقاطعت وتناصت مع كل أشكال التعبير الغربي.

أما أطفالنا فتعرفوا على(الأخر) من خلال حكايات ذات نفس عالمي[xxxv] . رومنسيا وواقعيا سحرتهم ترجمة "البؤساء" فهي رواية تأثر بها كل أطفال العالم تجاوزت القارات والقوميات فوصلت إلى أبعد الفضاءات . إن ترجمتها إلى مختلف اللغات هي التي سمحت لها بعبور الثقافات والإثنيات Les ethnies. أثرت على معظم أدباء العالم

دوستويفسكي،تولستوي،المنفلوطي...فهي من الكتابات العالمية التي خاطبت الضمير والوجدان ،كرست المحبة والسلام،واجهت الظلم والاستبداد فعكف عليها الكبار والصغار.

انتشرت جغرافيا وديمغرافيا في كل الآفاق حيث الإنسان جاهل ويائس ومجروح الكيان،وفي كل مكان تباع فيه المرأة أو الطفل بسبب رغيف خبز،وفي كل مكان يتألم طفل لأنه لم يجد كتاب أو لم يجد مأوي يحويه ويحميه من النوائب[xxxvi].دقت رواية البؤساء كل أبواب الدنيا فدخلت بأريحية ودون إذن على متن الترجمات .إن الأدباء الأجانب الذين نترجم أعمالهم وإبداعاتهم ليتلقاها أطفالنا يشاركون في إثراء لغتنا وثقافتنا وثقافة أطفالنا.إن بروز الكتاب العالميين من أمثال "فيكتور هيقو" لم يكن ممكنا إلا بفضل المترجمين والترجمات المكررة والمعدلة لصالح (أنا)الطفل.

من واقع الترجمة إلى العربية نلاحظ بصفة عامة أن النصوص العالمية- الفرنسية والإنجليزية – كان لها النصيب الأوفر في الترجمة للصغار واليافعين.ومن الأجناس المكرسة لهم تأتي الحكاية ثم الرواية على رأس القائمة. ويأتي الشعر ربما لصعوبته في ذيل القائمة حجما.أما ممارسو هذه الأجناس الأدبية الطِفْلِيَة فليس لهم تكوينا خاصا في الترجمة وإنما هم من رجال التربية والتعليم وممن لهم علاقة وطيدة مع الطفل والطفولة في مختلف المواقع والفضاءات الاجتماعية.

تطرح ترجمة الرواية إلى الأطفال والمراهقين ،إشكالية الفروق الثقافية والنكهات اللهجوية واللهجات الفردية .كما أن تعريب الأسماء والأمكنة والفضاءات يشكل ندوبا تشوه الأصل وتجتث منه نكهته وألوانه وثقافته ورؤاه الدينية وطبوعه العرقية .وتصل التشوهات إلى حد العبث بعبقرية لغته،و تعابيره المألوفة ،وقوالبه الأثيلة.هذه الظواهر تتجلى أيضا معكوسة حيث أنها تفعل المفعول نفسه في نص التلقي أو المصب الذي يجده الطفل مجافيا لأعراف ثقافته ولغته ومجتمعه .

نذكر في هذا السياق ترجمات سمعية بصرية لـــ Heidiهايدي Sandy belle ،ساندي بالSaly، سالي Barby ، باربي . ترد معظم هذه الأعمال محملة بعاطفة أو مسحة دينية مسيحية أو رومنسية يصعب على المترجم استبدالها بأخرى توافق أنا الطفل المتلقى وإذا اجتثها من النص يفقد مذاقه. تظهر التشوهات أيضا على أسماء الشخصيات والأماكن وتنتاب المترجم الحيرة أمامها أيتركها على عواهنها أم يستبدلها أم يبقيها كما هي أجنبية؟ فلا يصل الطفل إلى معناها أم يبقيها كما هي ويشرحها على الهامش؟ مثل شخصيات رواية البؤساء: Fantine,Gavroche,Fauchelevent,Madelaine,Jean Valjean,Cosette,Javert عندما توظف كما هي في أصل اللغة الفرنسية تصيب حصيلة الترجمة بافتقار يقضي على نزعتها البيئوية écologisme لأن هذه الأسماء بما فيه أسماء الأماكن(Montreuil,Montfermeil) لها دلالات لا تظهر في اللغة المحلية إلا بالشرح على الهامش.

بعد هذا التقديم ،والذي أتصوره مسهبا سأحاول عبر هذه المداخلة تقديم بعض الأفكار والملاحظات حول الترجمة من الفرنسية إلى العربية في عدد من الأنواع والأشكال الأدبية التي يحتضنها الكتاب الورقي والرقمي وتحتضنها الشاشة السمعية البصرية والعديد من الوسائط ،التي تبث مختلف النصوص ومختلف الخطابات ،والتي يدمن عليها الأطفال بشراهة ،منفقين معظم أوقاتهم . و بهذا الاعتبار فإن المحاكاة والسرد بمختلف الشفرات والاستماع إلى القصص وحكيها نشاط ثقافي لا يستغني عنه الطفل إطلاقا.

عندما نسعى إلى إنجاز عمل ترجمي للأطفال ينبغي لنا أن نتسلح بأقصى درجات الحيطة والحذر وعلينا الابتعاد عن التهوين من شأن الترجمة أو الأدب الموجه إلى الأطفال وكأن ترجمة أدب الطفولة تمثل طفولة الترجمة،الترجمة العفوية البسيطة. إن الترجمة التي تستهدف الأطفال مهما بدت بسيطة، فهي أعقد الترجمات وأرهفها. تحتاج منا إلى نخل وغربلة ما لدينا من معطيات حول واقع الطفل وثقافته، وما يقرأ محليا وعالميا. لأن كل ثقافة تتحدد بخصائصها وبالعلاقات التي تقيمها مع الثقافات الأخرى .إن التداخل أو التناص الثقافي مكون أساسي في الثقافة[xxxvii].ومن جهة أخرى علينا كذلك، رصد مفهوم الطفولة ومراجعته من حين إلى أخرى وتحيِّنه بكل مستجداته ،والنظر إليه في بعده المؤسساتي إذا كنا بالفعل نسعى إلى تنمية بشرية و كنا نريد لأطفالنا ولأمتنا نماء اجتماعيا وثقافيا طموحا.

وأيًّا كانت الترجمة أو الكتابة الموجهة إلى الأطفال فهي تنجز، في واقع الأمر، من قبل الكبار وترسخ هيمنة من صنع وتوجيه الكبار. ومن هنا، وحتى يستطيع المترجم التواصل مع الأطفال عليه أن يعرف «ماذا يوجد في الكبار من طفولة، وماذا يوجد في الطفل مما عند الكبير، حتى يتقبل ما يقدم إليه من الكبار»[xxxviii] وعليه ،أيضا ،معرفة ما إذا كان الكبار على حق دائما ولا ينطلقون من أحكام مسبقة يمارسونها عنوة على الطفل.وفي هذا المضمار على المترجمين ومؤسسات الترجمة الانتباه إلى المفاهيم والأسس التعليمية «الصادرة عن الكبار والتي "تترصد"الصغار باعتبارهم خطابا جاهزا،مباحا وخلوا،ومفتوحا للوصاية الغازية »[xxxix].

يعتبر موضوع الترجمة للطفل من أهم وأخطر النشاطات في حياة الأمم والدول.وذلك لأن الطفولة الصالحة والمعدة الإعداد الهادف والمخطط، هي الاستثمار الثقافي المثالي لغد أفضل.إن الترجمة أو الكتابة للطفل – بوصفها استراتيجيه تنموية – لا ينبغي أن تكون جزافية متروكة للصدف دون مراقبة صارمة ودون تقويم وتوجيه. فلا يعهد بها لمن هب ودب ،ولمن لا يرعاها في إطار العلوم النفسية والتربوية والعصبية وفي نطاق بيئتها وثقافتها المحلية ،من مثل الترجمة العرضية أو الترجمة العفوية أو المُسْتَهْدِفة الواردة علينا من ثقافات أجنبية غريبة عنا تجارية النزعة. والتي تلفظ أحيانا سموما تفتك بالناشئة ،نراها من يوم لآخر تزداد حجما وضغطا عبر الوسائط الإلكترونية ،حتى كادت تهمش دور المؤسسات المنوط بها تربية الطفل والترجمة له في نطاق الأسس والأبعاد التربوية ،التي تحترم خصائصه وثقافته وهويته.

تعتبر الترجمة أداة مثاقفة تتبادل بواسطتها الحضارات مختلف التأثيرات،وتتجاذب عن طريقها الأفكار والعلوم والعادات والتقاليد،فهي من أنجع أدوات التواصل والسلام في العالم تلطف الأجواء بين الشعوب والثقافات وفي هذا السياق اعتبرها الباحث الفرنسي«ميشال دوكستر» «مجموع التفاعلات التي تحدث نتيجة شكل من أشكال الاتصال بين الثقافات المختلفة،كالتأثير والتأثر والاستيراد والحوار والرفض والتمثل وغير ذلك مما يؤدي إلى ظهور عناصر جديدة في طريقة التفكير وأسلوب معالجة القضايا وتحليل الإشكاليات،مما يعني أن التركيبة الثقافية والمفاهيمية لا يمكن أن تبقى أو تعود بحال من الأحوال إلى ما كانت عليه قبل هذه العملية»[xl] خاصة الطفولة وما تمثل من حساسية وهشاشة ثقافية سهلة الاختراق

بواسطة الترجمة الموظفة للمثاقفة ،الموظفة عبر وسائط القراءة من كتب رقمية ونصوص ورقية مكتوبة.

من أولى الصعوبات التي تواجه الترجمة المحلية من وإلى اللغة العربية ،ذلك التغير في وسائط الاتصال الحديثة،تبدلت كثيرا وسائط الاتصال،وتنوعت مخاطبة الأطفال سمعيا- بصريا وكتابيا وازدادت تشابكا وتعقيدا،وتراجع الدور التقليدي للأسرة والمدرسة والمؤسسات التربوية وحلت محلها وسائل الاتصال الحديثة والتقنيات المتطورة في نقل ترجمة الأدب إلى الأطفال.أجمع مترجمو أدب الأطفال في العالم على خطورة وضع الأطفال في عالمنا الراهن.أبدوا قلقهم المتزايد حيال المصائر التربوية والتنموية لأدب الأطفال.توالت اعترافاتهم في أكثر من مكان داعية إلى الدفاع عن الأطفال ضد الترجمات الرديئة وعلى وجه الخصوص ما ينشر عبر وسائل الاتصال الجماهيرية.

والمترجم العربي عندما يهتم بترجمة نص أجنبي أو انتاج كتاب مترجم أو عمل فني للطفل؛ فهو يخاطب حاجات الطفل اللغوية والوجدانية والخيالية... ، ولكن ما هي المعيير التي تعتمد في جلب النص الأجنبي إلى ساحة ترجمتنا ؟إلى أي مدى كان نجاح ترجماتنا العربية؟ هل خاطبت حاجات وطموحات الطفل ؟هل حرضت خياله ،وكرست الحوار معه ،ونمت هويته وحريته وإبداعيته؟. لماذا تهيمن الترجمة الغربية وتشد اهتمام أطفالنا ؟ ما مدى جودة ما نترجم للطفل العربي ؟من يترجم وبأي أدوات أو تأهيل ؟ما السبيل إلى ترجمات عربية تكون في المستوى المطلوب تجيب عن أسئلة واستفسارات الطفل، تكرس قيما إنسانية وتبث روح الطفولة الحقيقية التي تقوي وتدعم إحساس الطفل بالخلق والنظام والقانون؟ هذا الأسئلة العديد لا تتسع المداخلة لها فسنجيب عن بعضها.

الترجمة الموجهة إلى الأطفال:

إن حقل ترجمة الطفل بما يتضمنه من قصص وأشعار ومجلات وكتب ومسرح وموسيقى وأفلام كرتونية وغير وإشهارات وبرامج تلفيزيونيه وإذاعية وصور متعددة اللغات والشفرات.مجال الترجمة يبدو واسعا وكثيفا يحتاج إلى تضافر وتكامل اختصاصات عديدة ترافق المترجم بل أكثر من هذا المؤسسة المنوط بها فعل الترجمة التي تملك القدرات فتستطيع تلبية معطيات وشروط الطفولة[xli] العديدة والمتنوعة المشارب .و مثل هذه الترجمة تخضع في واقع الأمر إلى أهداف نبيلة تشجع على الإبداع وتنمية القدرات الخلاقة تدعم التنوع الثقافي، والحوار بين الثقافات بوصفهما مفتاحين لتكريس السلام بين الشعوب .بالإضافة لما سلف تسهم الترجمة في ربء الصدع واعداد مواطن الغد الحريص على أناه وهويته وثقافته والقادر على تكريس الموائمة والمُناغمةً بين الذات والآخر.

بغير ما جهد كبير يلاحظ المهتم بمشهد الترجمة أن ترجمة أدب الأطفال تطورت و لم تعد مقصورة أو مختصرة في الكتاب الورقي التقليدي . والكتاب نفسه، بوصفه المصدر الرئيسي لثقافة الأطفال وأهم وسيط من وسائطها، تراجع كثيراً أمام وسائل الاتصال الثقيلة المهيمنة على عمليات تشكيل ثقافة وعقول الصغار والكبار. تغير وتحول الكتاب شكلا ومضمونا و لم يعد كما كان بل أصبح رقميا إلكترونيا يحمل تحديات ثقافية ولغوية وإبداعية بوسائط تكنولوجية متطورة نجهل تأثيراتها على عقل ووجدان الطفل. كنا ،قبل عقد من الزمن أو عقدين ،نجتهد في مناقشة وتحليل إشكاليات يفرزها واقع التربية والفن في مؤسساتنا. أما في عشرية مستهل القرن الجديد انبثقت على السطح إشكاليات أخرى معقدة ومضاعفة، وما هذه الدراسة إلا مقاربة لمفهوم الترجمة للأطفال واليافعين في ظل

هذه الوضعية الإشكالية.

ونلاحظ أن التعدد في أشكال ووسائط " التثاقف Acculturation" التي تستغلها الترجمة يتلازم أيضا مع تعدد بواعث الترجمة وأهدافها[xlii]. ولما كانت الترجمة إجمالا فعلا سياسيا بالمعنى العام كما تؤكد "منى بكر" لم يعد بالإمكان النظر إليها بوصفها فعلا لغويا تواصليا محايدا يلعب فيه المترجم دور الوسيط غير المنحاز.إن كانت الترجمة من الناحية النظرية يرجى لها أن تكون فعل تواصل يسعى إلى إحراز التفاهم والتفاعل بين ثقافتين، فالواقع اليومي ينفي ذلك ،حيث تتحول الترجمة فيه إلى أداة يستثمر فيها أفراد ومؤسسات وجماعات ضغط متعددة بغرض تحقيق أهداف سياسية معينة ، أو تغليب وجهة نظر أو طرح فكري ما على آخر[xliii].

وتأسيسا على ما سلف يرى "جدعون توري" أن خيارات المترجم هي دائما مشروطة بمعايير الترجمة السائدة، ومن ثم تتشكل بفعل هذه المعايير ،فقد رأى الدارسون الذين تبنوا المنحى الثقافي في دراسة الترجمة أن الفاعلية الثقافية والسياسية للمترجم تمكنه من الاشتباك مع معايير الترجمة،ومناوشتها،بل وتحيدها.والمترجم هنا ،وفقا لتصور أصحاب المنحى الثقافي في دراسات الترجمة ،لا يتحدى فقط معايير الترجمة واللغة، وإنما يتحدى أيضا التوجهات السياسية والاجتماعية والثقافية التي تضمرها هذه المعايير.ومن هنا ركزت دراسات الترجمة ذات المنحى الثقافي على الفاعلية الفردية للمترجم، وذلك من خلال إلقاء الضوء على الاختيارات السياسية التي يتبناها المترجم الفرد وأشكال وديناميات توظيفه لهذه االاختيارات في عملية الترجمة[xliv].وهو ما يعني أن الظاهرة تفقد وجودها الموضوعي أثناء البحث وتصبح رهنا لتصورات الباحث وأدواته وتتلون برؤاه واختياراته البحثية[xlv] .

ومن جهة أخرى تشير المعطيات الحالية أن الترجمة أصبحت هي لغة أوروبا وأن سلطة العولمة اكتسحت العالم وبات الوضع يتجه نحو ثقافة القطب الواحد ولغته،ثقافة الهيمنة والاختراق،ثقافة الآخر الغربي الذي بدأت أسهمه ترتفع على حساب أسهم اللغات والثقافات الأخرى ،ومن ضمنها الثقافة الإسلامية.[xlvi].وفي ظل هذه السلطة لم تعد الترجمة تمارس المثاقفة والتعايش،ولا تمارس التعريف بالثقافات المتنوعة والمتعددة ،بل صارت تقتصر فقط على تعميم ثقافة القطب الواحد ولغته،«الأمر الذي جعل الرئيس الفرنسي "شيراك" يدعو لدى افتتاح منتدى تحديات العولمة في مارس2001 للتصدي لهيمنة اللغة الإنجليزية»[xlvii] مثلا.

كيف نترجم للطفل:تقنيات وآليات الترجمة الطفلية .؟

إن الترجمة التي يوجهها الكبار إلى الصغار وإن بدت تتميز بخصوصيات الأطفال وطبيعتهم فهي لا تختلف في أسسها ونظرياتها إلا قليلا عن ترجمة الراشدين. تتمظهر الترجمة والكتابة الموجهة إلى الأطفال بوصفهما وريثتي الممارسة الشفوية التقليدية. ويستدعي السؤال كيف نكتب للطفل ؟ توأمه كيف نترجم للطفل واليافع؟وقبل الإجابة على هذه الأسئلة علينا الإلمام بطبيعة هذا المتلقي الصغير وذلك لربط وضبط السياق الأدبي – الترجمي على السياق التربوي. ومن المعطيات المساعدة على انجاز ترجمة مجدية ومفيدة للطفل هي معرفة هذا المتلقي الصغير سنه وقدراته العقلية ولغته ومطالعاته وأعرافه الشفوية والقرائية والجنس الأدبي الذي تعود عليه ووسطه الثقافي وكل هذه المعطيات وغيرها تساهم في إعداد الترجمة المفيدة والمقبولة من قبل الطفل .

هذه المعطيات تساعدنا على تجاوز العقبات والمعتقدات الخاطئة التي تعتقد «أن الترجمة انطلاقا من البسيط هي أصعب من الترجمة من المركب المعقد

وهنا يتعلق الأمر بسهولة مخادعة »[xlviii] بل مغررة .ويشرح "دوقلاس" هذا الاعتقاد المخادع قائلا:«يبدو أن كتابة الأطفال تقتضي سيولة ووضوح القراءة في لغة التوصيل أو الهدف ،وان كانت عقبات كل ترجمة تفضيى ،في واقع الأمر ، إلى التضخم »[xlix] أما R.M.Vassaloفيرى ويعتقد أن « ترجمة ما هو بسيط تلتهم الوقت أكثر من ترجمة المركب »[l] ويدقق أيضا فيقول :«كلما كان الملفوظ بسيطا كلما احتوى معاني متراكبة أكثر والتي تقتضي من المترجم أن يخفيها بدوره بملفوظ بسيط وليس ملفوظا بجانب ملفوظ يشرح النص»[li]

وفي هذا السياق الترجمة الموجهة إلى الأطفال لا تعني على الإطلاق "ترجمة مختصرة" (Traduction en raccourci)هذا المنظور التبسيطي محض وهم ،فوراء مثل هذه البساطة فروق ثقافية،ونكهات لهجية وأحيانا مصطلحات متخصصة. جهل اللغة والثقافات الأجنبية التي تختلف عنا يساهم في تعزيز عقبات الترجمة التي تستهدف الصغار.وأهم عقبة تجابه المترجم ما السبيل إلى إيقاع أو نبرة تدعو وتحث صغار القراء على الاستغراق في القراءة ومواصلتها حتى النهاية؟.

وفي إطار الترجمة الثقافية نرى أن ثقافة الطفل ثقافة خاصة مغايرة لثقافة الكبار وان شاركتها في بعض الجوانب والملامح، على أن المجتمع العربي والجزائري على الخصوص ـــ في بدايات اهتمامه بأدب الأطفال ـــ لم يكن يملك قدراً كبيراً من النصوص الصالحة للطفل[lii] فاستعان بالترجمة. ومن ثم كانت ندرة النصوص العربية مسوغاً للترجمة للطفل العربي. ولما نما التأليف أضيف مسوغ آخر هو الانفتاح المعرفي على آداب العالم وعلومه وفنونه وعدم التقوقع على الذات الثقافية العربية. وما زال مفهوم الانفتاح المعرفي ـــ نظرياً على الأقل ـــ سائداً في المجتمع العربي، ومسوغاً رئيساً للترجمة للطفل العربي، وهذا أمر مشروع، لأن الأمم بدأت تقاس بما تقدمه لأطفالها من غذاء ثقافي، وبمقدار مراعاتها حقوق هؤلاء الأطفال.

في هذا المضمار لا ننسى أن أدب أطفالنا تأسسا عفويا على مشافهة الجدات والأجداد. أما الاهتمام المؤسساتي بأدب الأطفال في الوطن العربي وفي الجزائر التي عانت من "كولونيالية" بغيضة فقد دخل الحياة الثقافية من باب التبعية الثقافية والإعلامية، حين طُرح أدب الأطفال بقوة من مراكز التبعية الغربية، وحين لاحظت النخب الثقافية والسياسية والتربوية العربية أن الغرب يعنى بمخاطبة الأطفال والناشئة العرب، وشرع ينتج لهم الترجمات الهجينة و أدب الأطفال عموما، وينقله إليهم بلغات أجنبية وهجينة وبوسائط ثقافية متعددة، وعبر وسائل الاتصال بجماهير الأطفال التي تنوعت وزاد تأثيرها بما لم تستطع وسائل القياس أن تحيط به في ظل تردي البحث العربي في الأدب الطفلي .

وهكذا، برز الاهتمام العربي بأدب الأطفال من خلال أمرين أولهما: توجيه أدب الأطفال ضمن أهداف محددة لم يتفق حتى الآن على توصيفها ومحتواها القيمي والفكري والفني، وثانيهما: مواجهة مخاطر هذه الكتابة التي تستهدف الأطفال والناشئة غير أن الغلبة والتأثير الأوسع ما يزال وقفا على مراكز التبعية التي تنتج أدب الأطفال لجمهور من الأطفال والناشئة العرب، بمواصفات أفضل وتنوع أوضح، وسعر أقل، يتيح لهذه المنتجات الرواج والانتشار أكثر من المواد الأدبية العربية النادرة والقليلة، نوعا وكماً.

الترجمة وثقافة الذاكرة أم ثقافة الإبداع :

إذا كان الأطفال يدركون العالم الطبيعي والعالم الاجتماعي بكل خثله الثقافي من خلال السرد أو القص.إن القصص التي يسمعها الأطفال أو يقرؤونها في حضن أسرهم ومدارسهم وبيئتهم الوطنية تجعلهم يُقطِّعُون الوجود وفقا لطبيعة لغتهم وثقافتهم[liii] .إن اللغات تختلف في تمثل نفس الحقائق فكل لغة طريقتها الخاصة في تصوير أو تمثيل الواقع. أما طبيعة النصّ في أيّ لغة فتخضع لعوامل دينيّة

وثقافيّة وبيئيّة واجتماعيّة، تسهم في إنتاجه وتطبعه ملامحها التي تنعدم في نظيراتها، لهذا كانت النسبيّة في فعل التّرجمة ونقل نصّ من لغة إلى لغة أخرى. الترجمة حتميّة فرضتها طبيعة تعدّد اللّغات وتنوّعها، فلولا هذه الكثرة والاختلاف لكان النّاس أمّة واحدة قال تعالى:﴿وَمِن آيَاتِهِ خَلقُ السَّمَاوَاتِ والأرضِ واختِلاَفُ أَلسِنتكُم وأَلوَانكم إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ للعَالِمِينَ﴾ الروم/22

إطلاقا من طبيعة كل لغة ،القصص المحلية القومية التراثية تمنح الأطفال واليافعين طرقا يفسرون ويحللون بها الأحداث والتجارب. بالإضافة لهذا تجعلهم يعيشون حياتهم بكل أحداثها ومغامراتها وصعوباتها كمتوالية أو سلسلة من القصص المتشابكة والمتماوجة التي تعزز اندماجهم في مجتمعهم وثقافتهم. فالاستماع إلى القصص ومحاكاتها تعد نشاطا ثقافيا لا يستغني عنه الطفل.إن شكل القصة ومحتواها يؤسس ثقافتهم التي لا تتطابق حتما مع ثقافة الآخر نظرا لاختلاف المعطيات.تشكل بنيات أو أشكال ثقافتهم طريق تفكيرهم وتذكرهم للتجارب.

عندما نترجم قصص الآخر ونوجهها لأطفالنا نقدم لهم في واقع الأمر صياغة الأخر لوجوده ومجتمعه وثقافته التي قد لا يقبلها أطفالنا أو ربما يقاومونها أو ربما يتكيفون معها على كل تلقيها يبقى مفتوحا حتى نعمل على توطينها وتأهيلها عبر الترجمة لتكون مفيدة . السرد أو القص لا يختلف عن اللغة له الوظائف المتشابكة نفسها ،فالأطفال يستمعون ويقرؤون ويحكون القصص للتفكير وللتواصل .القص كلغة هو، في واقع الأمر، شكل من أشكال الترجمة أو الوساطة يصنع نظاما للعالم وللثقافة .وإذا كان اختلاف الثقافة يتأتى من خلال اختلاف اللغة على المترجم أن يكون ماهرا في انجاز تفاوض ما بين اللغتين وبالتالي بين الثقافتين المختلفتين .

يلاحظ أن كتب الأطفال المؤلفة والمترجمة عموما تعتني بتنمية ثقافة الذاكرة على حساب ثقافة الإبداع وجعلت الطفل آليا مبرمجا مستهلكا للمعرفة حافظا لها.وأهملت جوانب أخرى تتناغم وطبيعة القرن الحادي والعشرين التي من أهمها إثارة التفكير بوضع المادة الأدبية المؤلفة أو المترجمة على شكل مشكلات تتحدى عقل الطفل فتحفزه وتدفعه إلى الاستقراء والاستنباط والاستنتاج والتركيب ... موظفا كل طاقاته العقلية.وفي هذا السياق إذا تأملنا الترجمات الحالية نجد أن المعيير التي تحكمها في العالم العربي قد تغيرت قياسا بالمعايير التي كانت سائدة في النصف الثاني من القرن العشرين وهذا بفعل العولمة التنميطية والانفتاح.على العموم بدت الترجمة للكبار وللصغار محكومة بجدلية الأنا والآخر.لقد احتفت بالمفاهيم الثقافية المعاصرة واتسمت بالتبادل الثقافي والمثاقفة،والغزو الثقافي والاستلاب والانفتاح على الآخر كما ونوعا أو الانغلاق على الذات.

تتطلب الإحالات الثقافية من المترجم أن يكيف كتاباتها وفق الأعراف والمعارف المفترضة لدى القارئ الصغير دون تجريح المعايير الدينية والاجتماعية التي تشكل تحديا كبيرا للمترجم الذي يقوم بترجمة نصوص ذات مناخات واذواق وصبغات دينية منافية لتقاليدنا الإسلامية ويصعب اجتثاثها من النص الأصلي إلى بخيانته والتفاف حوله .

في هذا السياق واستنادا لما سلف يتلخص دور المترجم في عملية الترويم أو المفاوضة المرنة ما بين نص الانطلاق ونص الوصول يجب عليه أن يقوم بتوصيل مواد وأنظمة ومناهج وصيغ ومعجم وتراكيب مفيدة ومجدية للمتلقي الصغير.إن المترجم في مواقف كثيرا لا يملك إلا أن يفاوض في عناصر الترجم على سبيل المثال:

يفاوض من أجل تبديل الترتيب :

مثلا جاء العنوان في الفرنسية La cigale et la fourmi الثقافة العربية لا ترتاح لهذا الترتيب وفضلت ترجمة العنوان كما يلي:«النملة والصرصور»وتعليل هذا الترتيب في ثقافة الأنا أن النملة في الثقافة العربية الإسلامية أمة لها نظامها ذكرت في القرآن الكريم ولا يجوز أن نقدم عليها الصرصور الذي ليس نموذجا يقتدى به سلوكيا فهو كسول وليس نشيطا وأخلاقنا تمجه.في هذا السياق المقاومة الدينية جاءت عفوية وفرضت هذا الترتيب بوصفه عرفا وسلوكا راسخا.

يفاوض من أجل استبدال شخصية بأخرى:

بعض الشخصيات القصصية قذرة تكرهها ثقافتنا بسبب تحريمها متاعا مأكلا ومشربا وتجارة. ثقافتنا العربية الإسلامية تستنكف وتتأذى من ترجمة هذه الجملة الواردة في قصة الخنازير الصغيرة الثلاث. تقتضي الأنا ترجمة هذه الجملة باستبدال الشخصية بأخرى تقبلها ثقافتنا « j'aime notre cochon il est beau et si doux» نترجمها« أحب خروفنا فهو جميل وأكثر لطفا».

يفاوض لاستبدال عناصر بعناصر ملائمة لثقافة الهدف فلا تكون غريبة بل مقبولة ومفيدة.يستبدل الرموز والأبطال والفضاءات وسيمياء الأشياء بأخرى مخالفة لثقافة نص الانطلاق .فالمترجم يمارس قي واقع الأمر عمليات كثيرة تتراوح بين *الإلتزام والتكييف والتحييد والتخيير والتحويل والكشف والاستبدال والانتقاء والتطبيع*...إلى جانب هذا يمكن أن يكون المترجم عفوا أو قصدا أداة فصل أو توفيق أو تحريف وقد يعمل حتى على إقصاء النص الأصلي.إن الانفتاح الترجمي المثري للثقافة والتبادل لا يجب أن يفضي إلى انطواء هوية الأطفال،انطواء يقهر شخصية الأطفال ويورثهم العديد من العقد ويحول دون نماء سيكولوجي سليم.وبهكذا نتيجة يكون المترجم قد هدم ماهية الترجمة لا الترجمة في حد ذاتها[liv].

هناك قوى وميولات ونزعات عرقية كثيرة تتقاطع عند المترجم ونص الانطلاق ونص الوصول، تعمل على تشويه وتحريف حصيلة الترجمة ،وتمنعها من الوصول إلى الأهداف المرسومة، ومن ضمنها الظواهر التالية والتي نكتفي بذكرها فحسب . منها عقلنة النص وتجريده من الأحاسيس وبالتالي لا يقبل عليه الأطفال بل ينفرون من جفافه وجدبة لأن الحواس محرك الأطفال الأساسي.إغراق النص بالتوضيحات التي تضخمه وتُطَوِلُه فيمجه ويبتعد عنه المتلقي الصغير.أما اختصار النص وتقليص حجم نسيجه عن طريق توظيف أيقونات ومثل مضبوطة فيعسر ولا يسر على الطفل فك مغاليقه وحِكمه الثقافية.

إن النص المترجم إذا تم مسح تنوعات نسيجه اللغوي وهُدِم إيقاعه عمدا أو عجزا فيفقد دليل القراءة بل يصبح معتما لا تفك طلاسمه .فإن هدمت عباراته باستبدال الصور والصيغ والأمثال بمقابلات في لغة المصب ربما افتقد غيريته وفقد معها فضول القراء الصغار.تحويل معجم الترجمة مثلا إلى معجم ذي طبيعة مادية واقعية أو خرافية أو أسطورية فالاقتصار على معجم والميل إليه قد يورث الأطفال ضعفا في الإدراك والتخيل يشوه عالمهم ووجودهم فيتمثلونه على غير حقيقته.أما عدم التوازن بين مختلف الشفرات(الكتابة،الصوت،الصورة،الألوان...) فيؤدي إلى فشل الترجمة السيميائية في الوسائط الأخرى التي تعتمد عليها كالفيديو والسينما والأفلام المتحركة وبقية الوسائط.

وتتجلى إجابيات القصص والنصوص المترجمة في تطعيم قدرات الطفل بصيغ وبنيات عقل وتفكير متطورة عم يجده في ثقافته المحلية التي تنعت بأنها ضعيفة ولا ترقى إلى الاكتفاء الذاتي بل تحتاج إلى روافد عالمية مستقاة من نصوص اللغات الأجنبية. انبثقت في السنين الأخيرة أفكار في غاية الأهمية طرحت من قبل علماء النفس والأعصاب تقول:«إن القصص هي الشكل الذي ننظم من خلاله التجربة

،وتلك القصص أو مخططاتها لا توجه ذاكرتنا فحسب بل توجه كذلك تجربتنا الآنية وما قد يحدث في المستقبل،هذا ما نفهمه من شذرات المعلومات وننظمه في شكل قصص»[lv] مخططاتها هي بمثابة "برمجيات Logiciel".

ومن جهة أخرى يرجح أن يتأثر الطفل العربي بموضوعات الأدب المترجم وقيمه، هذا التأثر ذو وجهين: وجه ايجابي يكمن في اطلاع الطفل العربي على عادات الأمم الأخرى وتقاليدها وعلاقة أطفالها بمجتمعهم وأسرهم وأوطانهم، وهذا ما عزز لدى الطفل العربي مجموعة من القيم المعرفية والاجتماعية والوطنية والإنسانية، إضافة إلى المتع الفنية النابعة من الحكايات الشائقة والشخصيات المحببة التي تستجيب لتطلعات الطفل وحاجاته.

غير أنه أمام المد الكاسح للمواد المترجمة كبضاعة مجزية في الأسواق العربية ،سرعان ما تسربت مواد فاسدة مخربة للعقل والوجدان ترتبت عنها نتائج وخِيمة تمثل الوجه السلبي للقيم ،وتعكس صورة للتلوث البيئي والخروج عن العادات والتقاليد والقيم. وهذا الوضع لا يصلح إلا بردة فعل قوية مصحوبة بتخطيط تعززه سياسة ثقافية تهدف إلى القضاء على هذا التلوث بواسطة إنتاج عربي وطني وقومي موجه للأطفال والمراهقين. و هذا الدور يمكن أن تنهض به كتب الأطفال المؤلفة والمترجمةفي إطار رفع التحدي ووضع البديل أمام الأطفال مع التوجيهات التربوية المناسبة له.

أما الوجه السلبي الثقافي الذي كرسته الترجمات أو حتى بعض التآليف تمثل في ضمور الحرص على اللغة العربية والإخلال بدقتها وانضباطها بالإضافة إلى انعدام التوازن بين ما هو علمي وأدبي ، إلى جانب التركيز على العوالم العجيبة

والغريبة، والشخصيات المستمدة من الحكايات الخرافية، وخصوصاً السحرة والكائنات الغريبة الجينة أو مخلوطة الجينة وما يرتبط بذلك من خوارق كطيران البواخر وناطحات السحاب والحيوانات الضخمة واختراق باطن الأرض ومسخ الإنسان حيواناً أو مخلوقا آليا وانقلاب الظواهر المعتادة وما إلى ذلك مما يفتقر إلى السند العلمي وان كان مفيداً لتنمية مخيلة الطفل. وليس هذا الوجه السلبي خاصاً بالقصص التي ترجع إلى منتصف القرن العشرين، بل هو عام، يلاحظ في قصص كثيرة[lvi] يتصدى فيها للترجمة مترجمون ليس لهم نصيب وافر من اللغة العربية بل هم دون مستوى لغة الأصل أو المصدر بل لا يدركون أدنى عقبات الترجمة وما ينجم عنها من عوارض تستحق المساءلة. هذه الأخطاء والفجوات كرست الضعف في تكوين الأطفال وخلقت فجوة كبيرة بينهم وبين الواقع المعاش.

الترجمة وبناء هوية الطفل :

عندما نتوجه إلى الطفل بترجمة قصة أو حكاية أو حدث لا ينبغي أن ننظر إلى الترجمة المُكَرسة على أنها فعلا لغويا فحسب بل هي فوق هذا وذاك غالبا ما تكون مسكونة بعناصر أجنبية فهي أيضا عملية ثقافية – اجتماعية ونتاج البيئة والظروف المحيطة بالمترجم كالتأثيرات السياسية والإيديولوجية والعقائدية والميول السيكولوجية [lvii]. إن الترجمة تتميز بموقعها البيني لكن نادرا ما تكون على مسافة متساوية ما بين الأصل والهدف فهي في الغالب تكون مشدودة إلى أحد الطرفين الأصل أو الهدف .

نظرا للخطورة التي تكتسيها الترجمة في حياة الطفل والأمة علينا أن ننتدب لها مناهج معاصرة قادرة على معالجة الظاهرة التي شرعت تتعقد في زمن العولمة حيث الترجمة هي لغة أوروبا أو الإنسانية المشبوكة في الشبكة العنكبوتية .ومن بين

المناهج التي تصلح في هذا المضمار سوسيولوجيا الإنتاج الثقافي كما طورها عالم الاجتماع الفرنسي"بيير بورديو " أو حتى سوسيولوجيا التلقي الثقافي وذلك لإتمام الدورة الترجمية التي تنتهي بالتلقي المنتج الذي يصدر عن المتلقي الصغير – الطفل – .ويأتي اختيار مثل هذه المناهج بسب تركيزها على الحضور الاجتماعي والثقافي الذي يكتنف نص الترجمة ويغمره بكائنات ومواد ثقافية وعقائدية وسلوكية نخشى من تأثيرها على هوية أطفالنا وقد تصنع منه رجلا معاديا بل ومنتقصا لهويته . ينطوي فعل الترجمة على مفارقة أساسية تشكل العامل الأساسي الذي يجعل من الترجمة فعلا اجتماعيا – ثقافيا بامتياز أكثر من كونها مجرد فعل لغوي.

الترجمة الموجهة إلى الأطفال والمراهقين أو حتى الكبار لا ينبغي لنا أن نختزلها في مجرد النقل اللساني والذي من شأنه تسطيح بل انتقاص فهمنا للترجمة التي نريد منها أن تكون أداة قوة وتعزيز لـــ الأنا . نحفظ لها كيانها عندما نهتم بمهادها وسندها الثقافي وهو ثوب أساسي لا تستطيع أن تتخلص منه بل تجره غصبا عنها أرادت ذالك أم لم ترده. الترجمة تتطلع دائما إلى مترجم يكسوها بثوبها القديم أو بالثوب الجديد،لكنها لا تقبل الظهور عارية. والمترجم عندما يرغب في التعريف بالآخر يلبس الترجمة ثوبا ملائما معتادا لا تنفر منه الأنا بل تقترب منه فهو يسعى بكل مهارة إلى جعل هذا الآخر مفهوما ومألوفا للأنا،وهو ما لا يتم إلا بنزع الغرابة عن هذا الآخر، وتجريده من بعض "أخرياته–غيرياته " وخصوصياته التي تحول بينه وبين الاندماج في الآخر.

تنطوي هذه المفارقة على توتر بين فاعلين (*الأنا والآخر*) أو فعلين، الترجمة بالميل إلى (*الأنا*)أو بالميل إلى (*الآخر*)– وهنا أتوسل بمصطلحي "بول ريكور" الذي سبق أن وظفهما في آليات التأويل – وهما المماسفة Distanciationوالملائمة Appropriation الأول يسعى من خلاله

المترجم إلى صيانة المسافة بين (*الأنا والآخر*) ، والثاني يتوسل به المترجم لردم الهوة بين الطرفين . الترجمة إذا هي في واقع الأمر عملية تفاوض بين هذين الفعلين ،يسعى المترجم من خلالها إلى إحراز هدفين : الاحتفاء بالاختلاف (وهو ما يمنح فعل الترجمة شرعيته) وإنجاز الإتلاف(وهو ما يمنح نتاج الترجمة مقبوليته أو بالأحرى مقرؤيته في الثقافة المنقول إليها) . و في سياق المنهج الثقافي لا يختفي التقابل كليا بين اللفظ والمعنى، ولكنه يميل إلى التمركز حول مسألة اللغة: أهل المصدر من جهة وأهل الهدف من جهة أخرى فعلى المترجم أن يتوسل بإحدى الاستراتيجيات أو يعتمد على عبقرية المفاوضة بين الطرفين[lviii].

يفضي بنا التعليل والتمثيل السابق الذكر إلى مراجعة المقابلة الثنائية بين الطرفين فلا ينبغي لنا أن نختصر الترجمة في أشكال مـــن المواجهة والمفاوضة (المماسفة ،الملائمة،التقريب، التغريب ، الاختلاف، الإتلاف) بين مترجم ونص أصلي من ثقافة أجنبية ،بينما هناك أطراف عديدة وفاعلة تشارك في عمليات إنتاج وتلقي الترجمة وكل عنصر من هذه العناصر يساهم في تشكيل نسق وسياق الترجمة ويمنحها سماتها ومعاييرها ومسارها ومصيرها داخل الثقافة المنقول إليها.

من بين الأطراف المشاركة في الترجمة نذكر مؤسسة النشر،وسياسة النشر المعتمدة،وطريقة تقديم الترجمة ،بما في ذلك الرسوم والصور وعتبات النص التي تشمل الغلاف الأمامي والخلفي،والمقدمات والحواشي والنص السابق واللاحق والموازي .أظف إلى ذلك علاقة هذه الترجمة بغيرها من الترجمات المتاحة في سوق الترجمة ،وعلاقتها بمعايير الترجمة المقبولة في الثقافة المترجم إليها ، بما في ذلك المساحة المتاحة لتقبل الاختلاف، لاسيما فيما يتعلق بما يمكن أن تراه الثقافة المترجم إليها على أنه من قبيل المحرمات .

وظيفة الحضور الثقافي داخل نص الترجمة :

قلما يكون نص الترجمة خلوا من الحضور الثقافي الذي يحتاج إلى تفاوض بين الطرفين لما ينجم عنه من خسارة أو ربح بين الطرفين.إن المترجم بوصفه جمركي بين حدين لغويين وثقافيين يراقب السلع فيمنع الرديئة والخطيرة والفاسدة ويتخير النافع والمفيد والأخلاقي والتربوي والإنساني فيسمح له بالمرور عبر اللغة التي هي بمثابة العربة الناجعة التي تشحن بمواد ثقافية مختلفة لا تمثل خطرا على من يقتنيها من النشأة واليافعين تعرف الترجمة على أساس أنها:«تواصل من خلال رسائل مترجمة في إطار نظام ثقافي – لغوي محدد،بما يترتب عن ذلك من نتائج تستدعي تفكيك الرسالة الأصلية وتحديد العناصر الثابتة ثم نقلها عبر الحدود الثقافية اللغوية وإعادة تشكيل الرسالة في اللغة المترجم إليها.»[lix] وهنا المترجم يرصد ويتتبع المواد الأدبية الأجنبية(شخصيات،فضاءات أفعال،عواطف،أفكار،قيم،أجناس،صور،أساليب،قوالب،أساطير قديمة وحديثة،معتقدات،عقائد،أمزجة)منها ما يعمل المترجم على *تثبيته أو محوه أو تحويله أو استبداله أو اختصاره أو تقليصه ...*

يقول هوراس في كتابه فن الشعر:« لا يجمل بك أن تحاول نقل الأصل كلمة بكلمة مثل عبيد الترجمة»[lx] فالترجمة كلمة بكلمة تكون محالة،لأنه لا توجد لغتان تتطابقان في بنائهما التركيبي للجمل،ولا في الصيغ الصرفية،ولا في الأنماط النحوية،باختصار ليس هناك لغتين تتطابقان في تصميمهما اللغوي الجوهري.وفضلا عن هذا تختلف اللغات باختلاف البيئات الثقافية التي نشأت فيها. هذا الوجود اللغوي – الثقافي المزدوج،أو المخطط الجنسي – اللغوي ethnolinguistique للاتصال ،كما يسميه "إوجان أ نايده" Eugene A Nida يجعل «من المحال

كليا أن نتعامل مع أية لغة بوصفها علامة لغوية، دون أن نقر على الفور علاقتها الجوهرية بالسياق الثقافي بوصفها كلا ».[lxi]

ومشكلة ترجمة الشعر،بصفة خاصة ، أكثر حدة ،حيث تكون العلاقات اللغوية في أكثر أبنيتها حساسية وتعقيدا وتركيزا، فتغدو جسد القصيدة .« وتغدو المشاكلة مبدءا بنائيا للنص في الشعر ...فترجمة الشعر محالة بحكم تعريفه ،وليس هناك شيء ممكن سوى التبادل الخلاق. [lxii]» . المترجم الممتاز وهو يترجم للأطفال يمكن أن يضيف للغة الأم ،ذلك أنه يدفع طوالع الإدراك لمواطنيه إلى أبعد مما هي عليه ،وذلك عندما يوظف اللغة في وظائف جديدة ، ويكشف عن الطرائق التي استخدمت في أماكن أخرى وثقافات أخرى لتوصيل حالا بأعينها من حالات العقل ،أو توصيل حدوس مباغتة ومشاعر غير مالوفة للكبار والصغار[lxiii] .

النصوص المترجمة أو المعربة تتميز بوضع خاص ضمن النسق الأدبي العربي .تأسست من عمليات نقل وترجمة وتحويل لنصوص أصلية غير عربية . إنها نص ثان يفترض نصا أصليا أول ، لكنها كذلك نصوص مستقلة بشكلها وصياغتها في اللغة المنقول إليها،وهذا هو المعنى الذي نقصده بمصطلح" تعريب" المتعدد الدلالات والاستعمالات في اللسان العربي. في هذا السياق نعني بمصطلح "تعريب" في آن واحد عمليات الترجمة والنقل والتحويل لنصوص من لغاتها الأصلية إلى اللغة العربية ،وأيضا وبالأساس البنيات النصية والخطابية والشكلية والأجناسية التي تم بها إدماج النص المترجم في النسق الأدبي العربي،والتشكيل النصي الذي توسلت به تلك النصوص للتداول في الحقل الأدبي العربي.إن مصطلح "تعريبّ يعني الترجمة كما يعني كذلك منح شكل عربي لنص غير عربي.

إن كل نسق أدبي في لغة ذات تاريخ وثقافة وحضارة يتضمن بدرجات متفاوتة في الحجم والأهمية نصوصا أدبية مترجمة تندرج في النسق الأدبي المنقول

إليه،وقد يحصل أن يصير لها وضع مركزي ومؤثر في تاريخ ذلك الأدب كما وقع لألف ليلة وليلة التي ترجمت أول مرة إلى الفرنسية من قبل "أنطوان جالان".إن الأدب المترجم نسق فرعي في النسق الأدبي،وقد يحدث في فترات من التاريخ أن يحتل مركز النسق الأدبي بأكمله ويكون العنصر المهيمن فيه.

الأدب المترجم ليس أدبا أجنبيا وليس كذلك تأليفا محضا وإبداعا أولا.إن قصص وخرافات " *سندريلا* **Cendrillon** *" و"أليس* *Alice* *في بلاد العجائب" "والبؤساء" و"هاري بوتر* **Harry Potter** *"و"الحسناء والوحش"*...المترجمة إلى العربية مثلا ،ليست نصا أدبيا عربيا أصليا لكنها في الآن ذاته ليست نصا فرنسيا أو إنجليزيا ...،إنها أدب مترجم، والمترجم ينقل إلى اللغة العربية نصا غير عربي بل هجين أو نص بيني، لكنه يصوغه عربيا وفق مقاييس النسقين اللغوي والأدبي العربيين، أو بالأحرى يحاول إدراجه في النسق الأدبي العربي العام إما بالخضوع لهذا النسق أو التمرد عليه أو الإلتفاف حوله ومراوغته . وفي هذا السياق يرى بعض المترجمين «أن كل تدخل لأحد تراكيب لغة الانطلاق يعتبر رعونة، لا بل عدم إتقان للغة الوصول»[lxiv] .

ومـــا يسترعي الانتباه، في حـــدود صناعة الترجمة الأدبية سواء للصغار أو الكبار، هو الاختلاف البعيد الأثر بين سيكولوجية إنتاج النص الأدبي الأصل المعد للترجمة، و سيكولوجية التلقي و الترجمة. فإذا كان الكاتب أو الشاعر حرا في نشاطه الإبداعي فإن المترجم أسير و لا يبدع أو يعيد الإبداع إلا في ضيق سيكولوجي تحت رقابة النص المصدر الذي يجب أن « يفهمه و يستوعبه و يتحسس تفاصيله و يؤوله و يحافظ على أصالته وثقافته التي لا تقبل التشويه »[lxv]و من أجل هذا عليه أن يلجأ إلى تأسيس حوار بينه و بين النص المصدر و صاحبه و متلقيه الافتراضي كي يتجلى قصد كل عنصر قصد المصدر و قصد

الهدف و قصد المتلقي .وهنا المتلقي الصغير يواجه فائض القيمة والأثر المتبقي للترجمة التي تطلق طاقات واحتمالات للمعنى وثيقة الصلة باللغتين والثقافتين اللتين يترجم إليهما النص.

مسألة الاختلاف والابتعاد في الترجمة مسلمة بل حتمية .في واقع الأمر المترجم ينتج نصا مفارقا ومختلفا عن النص الأصلي سواء مارس الخيانة أو الأمانة على النص.ما يحدث في فعل الترجمة أن المترجم يكتب بشفرات لغوية مختلفة أو مخالفة للشفرات اللغوية للنصي المصدر. فهو يساعد النص الأجنبي أو المصدر على الاندماج ليعيش حياة جديدة.فعندما يُترجِمُ إلى اللغة العربية على سبيل المثال فهو يكتب بلغة سليلة ثقافة وفكر معينين . والمترجم وهو يستخدم ألفاظ وكلمات ودوال وتراكيب ومراجع ومستويات لغوية مختلفة فهو بالضرورة يخون ويبتعد عن النص المصدر أو الأصل، لأن هذا النص المصدر هو كذلك وليد ثقافة بعينها[lxvi].

عندما يقارب المترجم النص الأجنبي عادة يذيب شخصيته و يتلبس بشخصية من يترجم عنه ليتقن عمله. و في هذا السلوك إئتخاذ بشخصية الآخر و تطويع لغة الأم كي تقترب من صيغ و أبنية و دلالات و استعارات اللغة الأجنبية[lxvii].

فمن أجل الوصول إلى ترجمة موفقة مكافئة يتأرجح المترجم بين الانقياد و الانعتاق من سيكولوجية المبدِع أو المبدَع أو المبدَع له . هل هو زجاج شفاف أو ملون . لمـــن الهيمنة و السب أ لنص المنبع أم لنص الهدف ؟ فإذا ما سوينا بينهما تطرح طبيعة الوسيط اللغوي بينهما و يحتدم النقاش حول الترجمة أ هي فن (Levy savory) أم علم (Catfood , Nida) أم تقنية أم هي شيء مستحيل نظريا لكن تبرره الممارسة [lxviii]من هنا ليس غريبا أن يضطر المترجم إلى التوسل بكل آلية من آلية المحاكاة إلى الخيانة الذكية و التعويض إلى التغيير بل يذهب حتى إلى ما وراء

النص من أجل أن ينهض بتفسيره و ترجمته . فهو « كالغائص في البحر يحتمل المشقة العظيمة و يخاطر بالروح ثم يخرج الجواهر الثمينة الراسية في القاع »[lxix]

إن نص الترجمة حسب رأي معظم الدارسين نص هجين أو نص بيني تتصالب فيه وتتقاطع عدة نصوص ،النص الأصلي أحدها فحسب.من بين النصوص الأخرى التي تترك أثرها في نص الترجمة مجمل النصوص الأخرى المؤلفة والمترجمة في الثقافة المنقول إليها والتي تتسرب سماتها إلى النص الأصلي.إن الثقافة هي المجال الحيوي الذي يتم فيه إنتاج الترجمة وتلقيها، وهو ما يعني أن أية دراسة جادة لظاهرة الترجمة لا يمكن أن تتجاهل هذا المجال الحيوي[lxx].الترجمة ليست عملا محايدا،بل هي انتماء وتموقع ومن ثم يجوز لنا أن نتساءل عن خندق المترجم وهل يتموقع بين الثقافات أم داخل الثقافات وهل يستطيع أن يقف مسافة عادلة بين النصين أم هو دوما مصاب بالميل[lxxi]. «وفي هذا السياق تعد الترجمة الحرفية إبقاء على الأخر متميزا متخندقا داخل خصوصياته مما يجعل المترجم حارسا على الحدود بين الكيانات الثقافية والعرقية»[lxxii]

خلاصة:

عمل المترجم بوصفه حصيلة – أنا وآخر- ليس نهائي ولا محدود،يحتاج دوما إلى المراجعة والإعادة والتحسين.على الرغم من كونها لعبة ومتعة الترجمة للأطفال سواء كانت حكاية أو رواية أو رسم كرتوني أو إشهار أو شعر محترم للأصل والجمهور المتلقي الذي يستأهل الأمتع والأجود.فالترجمة أبعد من أن تكون مجرد لعبة أطفال بل هي مسألة جادة تتطلب جهدا مضنيا ومضاعفا لا ينهض بها إلا أصحاب الاختصاص بل المؤسسات المختصة.

إن العمل الترجمي الذي يستهدف الأطفال واليافعين،يثير إشكاليات وأسئلة أعقد من الترجمة في حد ذاتها والترجمة للكبار .إن الترجمة للأطفال عمل شاق يشارك في بناء أدب أو آداب مستقلة لها خصوصيتها الواضحة والمميزة.في معظم أحوالها ومظاهرها ،الترجمة في مرورها من لغة الانطلاق إلى لغة الهدف يعترض سبيلها إشكال ثلاثي الأبعاد:أولا الخيانة السردية وتتمثل في الكيفية التي توظف بها القصة أو الحكاية بداء من درجة السفر وانتهاء بالأدبية الفائقة.ثانيا الخيانة الاجتماعية وهي تتلخص في الكيفية التي يوظف بها المترجم الشفرات والمرجعيات .ثالثا الخيانة اللسانية وتعري الطرق والأساليب التي تبين كيف تنعكس الإشكاليات الثقافية في شعرية الترجمة.

إن ترجمة أي نص للأطفال لا تكون نهائية بل محكوما عليها بانتهاء الصلاحية وأن تستبدل بغيرها لكونها مصبوغة بعدم الكمال وعدم الدوام مقارنة بنصها الأصلي الثابت الصفات والموازين التركيبية والصرفية غير القابلة للتصحيح.إن نص الانطلاق الأجنبي لا يعد نهائيا بشكل مطلق طالما أنه يعتمد على الترجمة لتأكيد بقائه.فقي النص المترجم لا تختفي الترجمة ولا يختفى المترجم ولا يغيب في عملية الترجمة [lxxiii].

النص المترجم إلى الأطفال يحكم عليه بالقبول من قبل الناشرين والتربويين إذا كانت قراءته سلسة،خالية من سمات لغوية أو أسلوبية غريبة أو أجنبية مبهمة ،مما يجعل النص يبدو شفافيا دون ندوب ،موحيا بأنه يعكس شخصية الكاتب الأجنبي أو قصده أو المعنى الجوهري للنص الأجنبي موحيا كذلك، بكلمات أخرى، أن الترجمة ليست ترجمة في واقع الأمر،وإنما "الأصل" . الترجمة لغة الجميع ولا تكون رديئة، على الإطلاق، إلا عندما لا تحقق أهدافها المرسومة .فإن فشلت فشلا

واضحا وجب علينا مساءلتها لتعيد الكرة فتحسن الأداء.على الرغم من الصعوبات والانتقادات الموجهة إلى الترجمة تبقى هامة وضرورية ولا سبيل للتخلي عنها فهي أنجع وسيلة لنقل الثقافة والحضارة .تفتح أذهان أطفالنا على العالم وتعرفهم على الآخر ،فيكتسبون قيم الحوار والنقاش ،وأعراف السلام والتسامح ويبتعدون عن التعصب والانغلاق.

الإحالات :

[xxxv] **-Voir :La belle au bois dormant,الجميلة الغافية,La belle et la bête, الجميلة والوحشة.Cendrillon, Saladin et la lampe merveilleuse, صلاح الدين والمصباح سندباد ,Sindbad le marin.القبعة الحمراء,Le petit chaperon rouge .السحري ملكة , La reine des neiges.الخنازير الصغيرة الثلاث,Les trois petits cochons.البحار Le chat botté,علي بابا والأربعين حرامي.,Ali Baba et les quarante voleurs.الثلوج اليرقات ,Grisélidis.بابا ياقا, Baba Yaga.الجنيات, Les fées.القط ذو الجزمة جلد حمار.,Peau d'âne.المذهبة**

[xxxvi] **Voir :** ***La Gloire de Victor Hugo*****, Paris, Editions de la Réunion des Musées nationaux, 1985, p.40**

[xxxvii] **Tzvetan Todorov,** ***Le croisement des cultures*****,** ***in Communications*****, no.43, p.16,**

apud **Jean-René Ladmiral et Edmond Marc Lipianski,** ***La Communication***

[xxxviii] **- سيسيليا ، ميَرايل ،مشكلات الأدب الطفلي،ترجمة مها عرنوق،دراسات نقدية عالمية،دمشق ،1997،ص33.**

[xxxix] **- سوزان إنجيل ،القصص التي يحكيها الأطفال –محاولة لفهم السرد عند الطفل –ترجمة إزابيل كمال،المشروع القومي للترجمة ،المجلس الأعلى للترجمة،القاهرة ،2004.**

[xl] **Michel de coster,L'acculturation,diogene,Revue,n73 ;1971,p15-28et suite.-**

- يقول الأستاذ يعقوب الشاروني، كاتب الأطفال (مصر): كتاب الطفل لا بد أن يتدرج مع قدرة الطفل على الاستيعاب، وأن يراعي المرحلة السنية التي يخاطبها؛ فرسوم الطفل الصغير يُراعى فيها الألوان الأساسية الجذابة (أزرق- أصفر- أحمر)، ويقل فيها عدد الأشخاص، مع إلغاء الخلفيات والاعتماد على ما نسميه الصورة المقربة؛ فالطفل الصغير يرتبك عندما تكثر الخلفيات والشخصيات، كذلك لا بد أن تكون الجمل قصيرة، وعدد المفردات قليلا، مع مراعاة التبسيط في الموضوع، وكلما تقدم العمر قل دور الرسوم وزاد دور النص المكتوب.[xli]

[xlii] ـ التثاقف (التكيف الثقافي). التثاقف هو العملية التي يستطيع الفرد أو الجماعة عن طريقها اكتساب الصفات الحضارية لجماعة أخرى من خلال الاتصال أو التفاعل بينهما. غير أن التثاقف بالنسبة للفرد هو عملية تعلم اجتماعي أشبه بعملية التنشئة الاجتماعية التي تلعب فيها اللغة دوراً جوهرياً. أما بالنسبة للمجتمع فالتثاقف هو عملية انتشار القيم والمقاييس والأحكام الاجتماعية إلى المجتمعات الأخرى مع تعرضها لعملية التبدل التي تجعلها منسجمة مع ظروف وأحوال المجتمعات التي دخلت إليها. غير أن هذه المقاييس والقيم والأحكام التي دخلت إلى هذه المجتمعات غالباً ما تسبب لها ظاهرة الصراع الحضاري أي الصراع بين القيم الأصيلة والقيم الدخيلة.

[xliii] - Voir : Baker,Mona,Narratives in and of translation,Skase journal of translation and interpretation,1(1) :4-13.online : www.skase.sk.

[xliv] - Toury, Gideon ,In search of a theory of translation ,Tel Aviv ,Porter Institue for poetics and semiotics ,1980.

[xlv] -Voir : META, Traduction pour les enfants ,num.special dirigé par Riitta Oittinen,48 :1-2,mai2003.

[xlvi] ـ ينظر عصام نور،العولمة وأثرها على المجتمع الإسلامي،مؤسسة شباب الجامعة،كلية الآداب جامعة الزقازيق،2002 ،ص24-30

[xlvii] ـ ممدوح محمد منصور،العولمة،دراسة في المفهوم والظاهرة والأبعاد،الجامعة الجديدة للنشر،الإسكندرية،مصر،2003،ص22-25.

[xlviii] CONSTANTINESCU, Muguras, 2008, *Lire et Traduire la littérature de jeunesse*, Suceava, Editura Univertatii,p243.

[xlix] Op.cit.p111.

[l] - ibidem,p206-207.

[li] -ibidem,206-207.

[lii] ـ على سبيل الاطلاع : صدرت بالجزائر مجموعة من الصحف من جرائد ومجلات متخصصة في مجال أدب قصص الأطفال. ومن أهم المجلات المعروفة في البلد نذكر: مجلة" مقيدش" التي أصدرتها الشركة الوطنية للنشر والتوزيع عام 1969م. كما خصصت بعض الصحف الجزائرية ملحقاتها لأدب الأطفال كجريدة "الشعب" اليومية، وجريدة " المجاهد" الأسبوعية، ومجلة " ألوان "الأسبوعية.
وتلت هذه الصحف الستينية مطبوعات أخرى في سنوات السبعين والثمانين كجريدة" قنيفد" سنة 1972م، ومجلة " ابتسم" سنة 1977م، و" جريدتي" سنة 1981م، ومجلة " رياض" سنة 1986م إلى جانب مجلات طفلية أخرى كنونو والشاطر/
ينظر:جميل حمداوي ، أدب الأطفال في الجزائر

[liii] ـ يقول محمد عابد الجابري في مقال له تحت عنوان: "العولمة والهوية الثقافية" في مجلة فكر ونقد العدد السادس من سنة 1998، معرفا الثقافة "بأنها ذلك المركب المتجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتعبيرات والإبداعات والتطلعات التي تحتفظ لجماعة بشرية بهويتها الحضارية، في إطار ما تعرفه من تطور بفعل ديناميتها الداخلية وقابليتها للتواصل والأخذ والعطاء، وبعبارة أخرى إن الثقافة هي المعبر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم عن نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت والإنسان ومهامه وقدراته وحدوده
وما ينبغي أن يعمل وما لا ينبغي أن يعمل".

[liv] - أنطوان برمان، La traduction et la lettre,ou l'auberge du lointainترجمة عزالدين الخطابي،بعنوان الترجمة والحرف أو مقام البعد،ص44.

[lv] -حسن شحاثة، أدب الطفل العربي،الكتاب الحائز على جائزة الدولة التشجيعية،الدار المصرية اللبنانية،القاهرة،1994 ،ص19.

[lvi] - ينظربعض الأعمال التي ترجمت إلى العربية مثلا: story Hansel and gretel,story Rabunzel,les trois petit cochon,Vilain petit canard,cendillon,la barbe bleue,la belle et la bête بالإضافة إلى القصص المصورة والكرتونية الصحوبة بالسرد الشفوي المترجم إلى اللغة الهدف العربية مثلBatman,Speder man ,Grand laser .

[lvii] Voir : Shavit,Zohar,Poétics of children's literature,Athens,Georgia,1986.

[lviii] -Voir : Jean René Ladmiral, Sourciers et ciblistes, Revue d'esthétique, N° 12, Toulouse, Privat, 1986, P; 3

[lix] - فصول:مجلة النقد الأدبي،لورانس فينوتي،الترجمة جماعات التلقي اليوتوبيا،ترجمة نجوى إبراهيم،الهيئة المصرية،القاهرة،ع2008،74، ص66.

[lx] - ينظر كتاب Arts poeticaترجمة لويس عوض تحت عنوان "الشعرالفاهرة 1947.

[lxi] - Eugene A Nida , (Principles of translation as exemple by Bible Translating) , in on[lxi] Translation, Ed, Reuben A Brewer, New-York,1966,p14.

[lxii] - Roman Jackobson , On linguistig aspects of translation, Brewer, New-York, p238

[lxiii] - Henry Gifford,Comparative literature,London,1969,pp54-55.

[lxiv] - محمد أحمد طجو، ميخائيل أوستينوف: نظريات الترجمة،الأربعاء 25 يونيو 2008

[lxv]- مجلة الوحدة، الأساليب و المشاكل و الحلول، نزار الزين، الرباط، المجلس القومي للثقافة، ع33 – 34 يوليو 1987 .

[lxvi] -Marie-Christine Hellot,La tradaptation :Quand traduire, c'estadapter Shakespeare, Jeu :revue de theatre,n133,2009,p78-82.

[lxvii]- Joelle Redouane , op . cit , P 61-62

[lxviii]- Jean Delisle , L 'analyse du discours comme méthode de traduction ottawa , Ed de l'université, 1980 , P 96 .

[lxix]- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص12 .

[lxx] - ينظر مجلة فصول ع74،مس،ص40.

[lxxi] - جمال حضري،الترجمة والمثاقفة،مجلة حوليات التراث،جامعة مستغانم،ع2006،5،ص48-52

[lxxii] Antony Pym ,Pour une éthique du traducteur, Puf,1997,pp16.

[lxxiii] -Venuti,Lawrence,The Translator's invisibility :A History of translation.London and New York,Routledge,1995,p1.